مقعدان في صالة للتمثيل

قصة بقلم هاني الراهب

الى الدكتور ابراهيم ماخوس

وقد جاءتني وصال يومذاك وقالت : الا اشترك في حفلة السمر التي تقيمها الجامعة ؟ » وكانت ابتسامتها الحلوة تقول لي : « يجب الا ترفض ، فحظان ! » ولم اتردد في القبول . بل اني امتنعت عن الشعور بضرورة الحذر . فعلى كل منا ان يخترق جدار الخوف ويجرب الحرية.

ـ اين انت ياانانا ! نحن اثنان ، ألا ترى ؟

ـ عفوك ياسيد ، الزحام يضطرني ؟ خاصة وانه لم تبق محلات .

لاباس . يبدو انه لطيف . لو أن بوسع وصال انّ تحجز مقعدا ثالثا لاجلسته عليه .. ربما جاء متأخرا فلم يجد مقعدا .

ـ ماذا تظن ، عثمان ؟ ألن يكون مقعدان بانتظارنا ؟

قال عثمان : ـ مادامت قد اشتركت في التمثيل فستحجز مقعدين حتمـــا !

وقفنا بمدخل الصالة كانت تعج بالناس : أجسام مسترخية علـى مقاعدها ؟ وعلى الوجوه غبطة وثيرة ؟ وتتأمل العيون بهدوء الجو القريـر المدمدم باحثة عن منظر جديد ، سديم من الدخان واللفظ تحلق في الجو الخفيض فأحال الصالة الى عالم يشاهد ولا يعرف ، حيث اطمأن كـل رقم فيه الى انه جالس على مقعد . بحثت ولم تكن عيناي قريرتين ، ففي هذه الدنيا الصغيرة التي ملأها مايقرب من خمسمئة شخص ، يوجد لي مقعدان . لي ولعثمان .

قال عثمان : ـ أف ! هل سنجلس بين هاته الفتيات الخليعات ؟

ـ خليعات ؟! أعوذ بالله !

قال : ـ انظر الظهور والنحور .

ـ تلك هي عادتك ، لاتتسامح كأنما يهاجمك كل شيء . وما كـان الكشف عن الظهور والنحور غير افساد للطبيعة البشرية ، أو دليل انعدام اصالتها .

ـ .. وهذه الوجوه المطموسة ؟

ـ مطموسة ؟ ماهذا ياعثمان ؟ ماذا ستقول عن خطيبتي عندمـــا تظهر على المسرح . انها تمثل في كل نمرة .

لمست احد الواقفين برفق ولكن بقوة فازاح نفسه . وتقدمنا . .

قال عثمان : ـ انها اختي ايضا . وهي مخالفة للاخلاق في ثلاث : في التمثيل لانه نوع من الغيبة ، وفي الظهور امام الناس ، وفي التبرج.

ـ ياساتر يارب ! سوف تعيش زوجتك ـ اذا تزوجت ـ في قفص. الاخلاق ، المباديء ، المباديء ، الاخلاق . لقد طمرت نفسك بها .

قال ولم تختلج في وجهه عضلة :

ـ هذا خير من أن تظهر شرور النفس .

ـ ليس في النفس الانسانية شرور . انها نبع مشعشع بالنـــور والصفاء . هل تعتقد انّ وصال ستتغير في نهاية الحفلة ؟

قال عثمان بثقة : ـ مادمت قد افسدت اخلاقها ، فلن يكون أي شيء مفاجئـا .

ضحكت . ازحت اثنين يتلكآن ، ثم ازحت ثالثا . واحسست فجاة ومرة اخرى بوجودي في الصالة ، احساسا نفاذا يلطم الجبين .

قال احد الواقفين ، وعنقه مشنوق بربطة طحينية :

ـ لم تبق محلات .

نظرت اليه : ـ خطيبتي مشتركة في الحفلة، وقد حجزت لي مقعدين.

يقولون لك : لم تبق محلات ، كأنما يؤدون واجبا ، وسريعا مايوطدون معك صداقة اذا تحدثت اليهم ، كأنهم يهربون من انفسهم ، لولا ان عثمان يعلق لكنت تحدثت مع صاحب الربطة الطحينية ، ذلك ان ديدنه «يجب ان » و « يجب أن لا » .

شعرت ان الجو النفسي بيننا قد توتر . وتضايقت .

ـ عثمان ، هل تذكر المرة الوحيدة التي اتفقنا فيها ؟

وضحكت ، قال عثمان وهو يشق طريقنا :

ـ اما انه لسؤال ! وللمرة المئة .

ولكني حاولت من جديد ان يذيب المزاح نرفزتنا :

ـ انه يوم اقنعتني بالا تذهب وصال لدورة مياه المقهى، واستأجرنا التاكسي الى بيتكم . كنا في اول عهد الخطوبة ..آ .!.

لاباس ، ان له الحق في تجهمه ، فقد ضايقه يومذاك أني ندمت مـن اقتناعي .

قال : ـ يبدو ان المقعدين مفقودان . ماشاء الله . يجب ان نعود

ـ انت لم توافق على المجيء منذ البداية . ولكن انتظر ، سأقطع رجل من يجلس عليهما .

ضحكت بابتسار ، ثم بحثت عن المقعدين مقطبا . لابد ان يوجد في مكان ما مقعدانّ يكونان خاليين . ان الصالة مليئة ، ولكن لابد من وجـود المقعدين . تفحصتها ثانية ، ثم ثالثة وباحساس مسبق بالفشل . تلـك هي السنة : لابد ان يخيب الانسان . ولكن أين وصال ؟ لو انها تتحدث للمشرف على الحفلة .. ولكن ماذا بحق السماء يعني انها لم ..

يجب ان نراها . لابد انها تستطيع تسوية الحال .

يا الهي ، كيف يمكن لوجهه ان يبقى جامدا هكذا !

قال : ـ لنعد . يحضر الانسان خفلة وهو جالس .

سرت بسرعة حتى الصف الامامي، متفاديا ما امكن الارتطام بالناس. وامسكت يد امتدت لتوقفني فابعدتها . تقدم اثنان عريضا الاكتاف يحملان شارة خضراء مثل غصن زيتون ثبتت على ساعد كل منهما وقد كتب عليها « لجنة تنظيمية » . وشعرت بالارتياح ، فهما مسؤولان ويمكن على الاقل ان يريحا تساؤلي . قال الاول :

ـ من هنا ممنوع ياسيد .هذه غرفة الممثلين .

وأية « سيد » ، نظرت اليه قليلا.

ـ الموضوع هو هذا : ان لنا مقعدين حجزتهما خطيبتي ، وهـــي مشتركة في الحفلة . انني لا أراهما . قال الثاني وهـو ذو حاجبـين خفيضين : ـ لا يمكن رؤيتها الآن فنحن ننتظر رفع الستارة للمرة الثالثة. ثم ان الحجز ممنوع . يأتي المتفرج ويجلس ، هكذا ، الدنيا حرية .

ـ ولكن معي بطاقتي دعوة .

أخرجت البطاقتين . ونظرت الى المنظمين .

قال الاول : ـ لقد تأخرت . كل المقاعد مشغولة، وحتى اماكن الوقوف فكرت أن بوسعها أن تحضر كرسيين لنا .

قال عثمان : ـ يجب أن نعود اذن .

نظرت الى المنظمين : ـ اين المشرف على الحفلة ؟ لعلي ارى خطيبتي

قال الاول : ـ الدكتور نظام ؟ انه في غرفة الممثلين . و ..

همس عثمان في أذني : ـ غرفة الممثلين ! لعله يبصبص على أفخاذ البنات عندما يرمين ثيابهن .

ـ .. لن يأتي الا عندما ترفع الستارة . ماذا لو وقفت هنا؟ لقد كانت هناك أمكنة كثيرة ، الا أنها نفس المشكلة الابدية : تضيق الامكنـة بالناس دائمـا .

انتبهت الى أن الضجة قد صارت مزعجة ، وأنه حتى استرخـاء

الارجل مثير للضجر . كانوا جالسين كأنما يشغل كل واحد منهم مكانه الطبيعي ، لا في الصالة ، بل في الحياة ، فيما مكث الشابان واقفين أمامي .

قال عثمان : ـ لنعد . يجب أن نعود .

رأيت الدكتور نظام ينبثق من الباب بصلعته اللامعة ويتهزهز سائرا حتى مقعده في الصف الامامي. حاجبا عثمان كان متصلين وأجفانه مثبتة. شعرت بالضيق .

ـ لا بأس . سنقف هنا .

ونظرت اليه من زاوية عيني . لم يتحرك انما قال :

ـ ليس ضروريا ان تنفعل لكلمتي . لا نريد غضبا الآن .

ـ ما دام كل شيء منوطا بي فلماذا أغضب ؟ ما الدافع لان أغضب؟

التفت يسارا . يلمع ضوء الستارة الاحمر على صلعة الدكتور نظام ، وعلى مقعده أيضا . نحن فقط ومنظمو الحفلة واقفون . أخذ ضوء أبيض يشوب الاحمر . استدرت فاذا الستارة ترفع . وظهر شاب يقف مع وصال على منتصف المنصة . ونبعت موسيقى هادئة لطيفة .

سيبدأ التمثيل الآن ، وانها لتجيده كثيرا . تجيده حتى لتنسيني أنها تمثل . ومن يدري فلعلي أجبتها من أول لقاء بسبب هذه الحيوية المتنوعة . كانت تبدو دائما محوطة ، قريبة وعصية ، كأنما لا قرارة لها.. مد الشاب يده فاستكانت اليه . شيء طريف ، فالمسرح هو المكان الوحيد الذي ترفع فيه الفتاة كلا رأسها وذراعها بنشوة .. أية كتابة هذه ؟

ـ انها تمثل دور « فلسطين » . وهذا الشاب « شعب فلسطين»

لم ينبس عثمان بشيء . لكن وجهه ذكرني بما قاله عن الفتيات الخليعات . تأملت وصال ورفيقها . كان ثلاثة آخرون قد برزوا من زاوية المسرح اليسرى ، وصاروا يشيرون اليهما وظهورهم متقاربة ومقوسة . تقدم من بينهم واحد قميء ـ « اسرائيل » ـ وطفق يدور حولهما ، والشاب يشد وصال اليه ويرمق اسرائيل بحذر . شعرت ببعض الكآبة .

دار الثلاثة حول الاثنين ، فوقفت وصال خلف الشاب وعلقت يديها حول صدره بجزع . اقترب الثلاثة أكثر فتعلقت به أكثر . وأخيرا تقدم اسرائيل وشدها من يدها عنوة فانجذبت اليه ، فيما شد « انكلترة » و « فرنسا » الشاب وابعداه الى طرف المنصة . وضع اسرائيل يدي وصال خلف ظهرها فبرز ..

ـ هاه . لقد انتهكوا عرض فلسطين .

قال أحد الحاضرين . قال عثمان :

ـ أنت ترى هذا ؟

ـ انه تمثيل .

ـ الطبيعة لا تعرفه تمثيلا .

ـ الطبيعة ، الطبيعة ! كأن نفوسنا قاعة مظلمة جرداء عارية لا تثير غير العنف والابتذال !! هل تريد أن نفقد ثقتنا بالبنت ؟

قال عثمان بهدوء جليدي : ـ ثقة ؟ ليس ثمة ضامن لشيء بالنسبة للانسان .

التفت رأس الدكتور نظام ، وانحنى اليه « لجنة تنظيمية » .

ـ هذا بالنسبة لك فقط . انك لم تعتد أن تثق بأحد .

تقدم شاب ثالث منا وهمس : ـ لا ترفعا صوتيكما . لا تتكلما في هذا الموضوع .

قال عثمان : ـ أهو ممنوع أن نتحدث في حماية أعراضنا ؟

قال الثالث : ـ النظام يقتضي تأجيل هذا الموضوع .

قال عثمان : ـ ماذا نستفيد من هذا « الاقتضاء » في موضوع كهذا.

قال الثاني : ـ لا يعل صوتك . انت تلفت انتباه النظارة .

وبدا على وجه عثمان بعض التشجيع من الملاحظة الاخيرة ، ورأيت أنه صار وحيدا

ـ ألا يحسن أن تطردنا خارج القاعة ؟

قال لي الاول : ـ اذا استمر حديثكما .

نظرت اليه مفتوح العينين ، مفكرا بدهشة أن هذا الشاب بالذات يجب أن يقتلع من الارض التي يقف عليها .

ـ ما كنت أعرف أنك على مثل هذا الحزم .

قال : ـ في الحياة أشياء كثيرة لا تعرفها .

قال رابع : ـ تفضلا للخارج .

رن فجأة تصفيق حاد . التفت نحو المسرح فرأيت وصال تتراجع نحو اليمين بانحناءة مهذبة ، ووجهها الزاهي يبتسم . ولمحت في عينيها الوضيئتين نظرة قلقة .

ـ لن أقبل بهذين المقعدين بديلا .

دفعت يد المنظم الخامس ، وهرعت الى الباب ضربته بقدمي ودخلت . استطلعت الفسحة الصغيرة، وتحيرت: افتح الباب الثاني امامي أم أرقى الدرجات . ازداد توقفي بسبب هذا الاختيار الاحمق ، فضربت الباب الثاني بجماع رجلي ، وارتج محدثا طنينا داويا . أيقنت أنها في الداخل . اقتربت من الباب ثم التفت ، اذ اندفع عثمان من الباب الاول مضطرما .

قال : ـ أعطني السكين . ضربوني .

وهجم علي دافعا أصابعه نحو جيبي الخلفي . أمسكت بيده فشدها للخلف ومد الاخرى .

ـ مجنون . ليست معي سكين . انتبه فأنت تدفعني

ـ اعطنيها .

أمسكت يده فأفلتها . وهاجم الجيب الخلفي مرة أخرى فاستدرت مبتعدا عنه . وطارت يده الطليقة فصدمت وجهي ، ثم انفلتت اليد الاخرى .

ـ مجنون ! هل تعتقد أني أحمل مدية ؟ انتظر . ماذا تفعل . ليست السكين وسيلة .

انقذفت على الجدار . وفي لحظة تواجهنا مثل ديكين متحفزين .

ـ وبعد كل هذا نتشاجر !

ـ لقد أهانوني أمام الصالة كلها . يجب ان يتعلموا الاحترام . والآن أعطني السكين ..

انفتح الباب الاول وتقدم منه المنظمون . أربعة منظمين . التفت اليهم في اللحظة التي رأوانا فيها .

صرخ عثمان : ـ لا تدعهم يقتربون . أعطني السكين .

تفتقت كلماته خشية شاحبة على وجوههم . وبدونا نحن الستة أشبه بمساجين تقترب من كل منهم جدران الغرفة على انفراد .

قال الثاني : ـ لا تستعمل المدية . نحن لم نأت لنتشاجر !

ـ لماذا ضربتموه اذن ؟

تأهب عثمان ، ووقف منتظرا .

قال الاول : ـ اذا تركنا لهما فرصة الهجوم ، فقد يؤذينا صاحب المدية .

قال الثالث : ـ نحن نمثل النظام فكيف نتشاجر ؟

ـ أريد خطيبتي .

لم يجب أحد . رقيت الدرجات . ضربت الباب الثالث برجلي . أمسكت المقبض وأدرته . رأيت دفعة من الفتيات المذعورات ، وفي يد كل منهن شيء للزينة . طوقتني أيد وشدتني الى الخلف . وانصفق الباب بعنف ثم ارتج . دفعت يدي وضربت بالاخرى ، فحرري جسمي . تحديت واستندت على الجدار مادا يدي باستعداد . لمحت عثمان يتحفز عند الزاوية .

قال الرابع : ـ انها شيء يملكه . وتلك وسيلة للتهديد .

ـ أين خطيبتي ؟

قال الرابع : ـ كل ما يجري لا معنى له . مهلا ، انها ملكك ، ولكن اهدأ أولا .

ـ اخرس يا قليل الادب . سوف أمزق وجهك .

قال : ـ لا تقل (قليل الادب) ولو كانت لديك مدية .

ـ وصاااال .. تعالي هنا فورا .

تدافع عثمان والثالث . تفادى الاول ضربة عثمان ومد رجله .

هجمت . هجموا . دفعت أحدهم فترنح . ضربتني قبضة على صدغي . تلاعبت يداي في الهواء . ضربت وضرب عثمان . وضربوا ، وضربنا كلنا.

مسحت حاجبي ، فرأيت على يدي الدم . صاح الرابع :

ـ أهدأوا الآن . ماذا جرى لنا ؟

ابتعدوا الى طرف الفسحة . خفضت يدي ونظرت الى المتكلم . لهثت :

ـ وصاااال !

اندفعت نحو الباب الثاني وارتميت عليه . تنبهت بعد ثوان من غفلة اجبارية فنهضة عن الارض . نظرت الى المكان الذي سقطت عليه ، واصابعي تمسك بمرفقي . قاعة مظلمة جرداء عارية لا تثير غير الرعب . شعرت بالغيظ . فظيع اتساع القاعة ، فظيع جدا . من هنا وهناك سح بصيص كهرباء ، فقط ليذكر بالظلمة . من الجدران نفرت مسامير قاتمة تحمل ثيابا .

انفجر في ذهني ادراك غامض ، واستدرت للوراء . في زاوية القاعة القريبة خلفي تراكمت اخشاب هشة متآكلة ، وقفت عندها فتيات . رأيت وصال . تقدمت . تعثرت رجلي بالاخشاب ، وسعلت بسبب غبار دخل فمي .

وصلت اليها ، تشد الفتاتان يديها نحوي ، ويتحدب ظهرها الى الجدار ، وفي عينيها تتجمد نظرة مبهورة ـ وجه وعينان أشبه بالمومياء. شعرت بغتة بألم ذراعي . رفعته نحو أنفي لارى قميصي مبللا

ـ أرأيت ما سببت لي ؟ قد يكون مكسورا . لماذا لم تجيبي ؟

شيء كالصديد أحسسته يملأ أمعائي . واحتقنت عروقي . انتشر ضباب بني أمام عيني . دفعت الفتاتين بمقت وحشي ، فتعلقت بي احداهن باصرار . دفعتها ثانية فاهتززنا وضرب كتفي بالجدار . تأملت الجدار : كان مفيظا مخرشا ، خشنا ، عاريا . وآلمني كتفي .

عندما تقدمت تراجعت هي .

ـ لماذا لم تجيبي ؟

عيناها مثل المومياء . وكذلك وجهها .

ـ ما معنى هذا ؟ هل ترينني حيوانا منقرضا ؟ عجيب الشكل ؟

تضاغط بين أضلاعي شيء أشبه بجشأة ضخمة . وأحسست أن الدم سيشخب من عرق في عيني . أما وجهها فما زال بلا سيماء ، وأما هي فاستمرت تتراجع لصق الجدار . تعلقت برسغها وشددته، فالتوى مع جسمها . شددته أكثر فصرخت وتهاوت . أمسكت يدها الثانية وشددتها : انها تتظاهر بالاغماء .

أمسكتني من الخلف أياد كثيرة . ومن بين رجلي المتخبطتين في الهواء رأيتها تتهامد على الاسمنت العاري . انتفض صدري بشهيق فظ ثم انفلق . وما زلت اختبط بين الايدي . ضربت بجسمي فطوقوه .

ـ أخرجوه . هذه القاعة بحالها توحي بالقتل .

في الخارج أخيرا ؟ ولم تجد مقاومتي . كففت عن المقاومة واستندت الى الجدار . الفسحة الصغيرة مرة أخرى .

قالت فتاة صغيرة العينين : ـ كانت خائفة من شيء يحدث ، منذ تأخر وضيع المقعدين .

نظرت اليها .

قالت فتاة وهي تتأملني بلا ابتسام : ـ ان له الحق في المقعدين .

نظرت اليها .

أعلى أحد الممثلين : ـ ليأت الدكتور نظام .

فرد أحد المنظمين : ـ لماذا ؟ لقد أغمي على البنت ، وجرح هو ، ونز الدم من أسنان رفيقه . وانتهينا .

نظرت اليهما .

قال ممثل : ـ « انه يفكر » . نظرت اليه .

قالت فتاة : ـ ان له الحق في المقعدين . اتركوه فلن يتحرك ، يبدو أنه قد تجمد .

نظرت اليها . تقدم عثمان مني ، ممسكا بمنديل فوق فمه وحاجباه مقفلان . تأملته . تقدمت نحو الصالة وفتحت الباب بحيث تنظر عيناي: انهم ما زالوا جالسين ، كل على مقعده ، كأنما يتمركزون في أمكنتهم الخاصة لا في الصالة بل في الحياة . صلعة الدكتور نظام تتوهج تحت الاضواء والهمهمة لا تزال . عدت وحملق بي الحاضرون . حملقوا بامعان وتأملتهم انا الاخر .

ـ هل أفاقت ؟

أيقنت من تطلع الوجوه المحيطة بي أن مزيجا من الخوف والدهشة قد عراها ، وفي لحظة أدركت عجزي التام عن أن أفهمهم أي شيء . تحرك بعضهم بلا هدف ثم حملق بي ، وأخذ بعض العيون يتأملني شزرا . شيء كلصقة ضد البرد راح يفرز بلادة هامدة على جبيني . وشعرت بعبث الشرح :

ـ ألا أستطيع أن أراها ؟

لم يتكلم أحد . ونبهني وخز في مرفقي فتذكرت أنه الجرح وتحسسته . تحسست الدم المخثر الرائب . ودخلت القاعة . ورأيتها الى جانبي ، يدها محزمة بالابيض ، ووجهها ممروغ بالطلاء الممسوح وحبيبات الماء . أما فمها ففي محاولة مهزوزة للابتسام ، انسحب الحاضرون والذين دخلوا ، ولم تستدر لتراهم .

قالت : ـ ذهبوا ليستأنفوا التمثيل . لقد توقف فاضطر مدير المسرح لتقديم الموسيقى .

ـ التمثيل . أجل . والموسيقى .

نظرت اليها ، الى يدها . مددت يدي الى بنصري الايمن ، وبهدوء سحبت الخاتم ووضعته في يدها الاخرى . وحدقت الي بعينيها الوضيئتين :

ـ سنغفر كل شيء ! كانت الحادثة بسيطة !

واحتدم صمت . كنت شبه مرتبك .

ـ هذه النفس الموحشة يا وصال . انها سوف يملؤها بالجشآت . فكرت مرة واحدة فقط عندما حدث ذلك : فكرت أن الرجوع الى الصالة غير وارد وقد خرجت منها ، وأن الذهاب الى المنصة ليس بغيتي ، واذن فعلي ان آتي الى هذه القاعة الكئيبة .. يجب ان نثق بشيء ما اولا . أريد ان نكون مخطوبين بغير هذا الخاتم ، فالاشياء الخارجية لا تبرر لنا كل ما في الداخل . هذا يتطلب كثيرا من التعري والالم ، ولكننا يجب أن نحرق الهشيم في نفوسنا أولا .

كانت مطرقة .

ـ هل ستذهب الآن ؟

ـ أجل .. أعتقد .

انفتح الباب وبرز وجه فتاة شمعي . قالت

ـ بقيت دقيقتان للنمرة التالية ، ويجب أن تعيدي الماكياج .

قالت وصال : ـ اني بالكاد تعرفت على وجهي ، عندما رشوا عليه الماء ، فأصبح غير صالح للتمثيل وغير صالح لغيره .

خرجنا ، لم أشق طريقي بين الحاضرين ، كان واضحا . سرت بينهم دون أن أراهم . رأيت من باب الصالة المفتوح صفا من الاجسام وقد استرخى كل على مقعده .

قال أحد الحاضرين : ـ هل نطفيء الضوء في القاعة ، وصال ؟

وتوقفت داخل الباب ولم تجب ، فقلت له :

ـ كلا ، اتركه مضيئا اذا تفضلت .

صعدت وعثمان الى المخرج الامامي، والهمهمة ما تزال ترتطم بجدران المكان .

ـ ها قد اتفقنا مرة أخرى

قال عثمان : ـ كان يجب أن نترك الصالة منذ البداية

قلت : ـ لا يمكنك أن تترك العالم بهذه السهولة . سوف يبلوك الغيظ .

قال : ـ وما كان ينبغي أن تمثل وصال .

ـ كلنا يا أخي يمثل . الا أن أحدا لم يفقد مقعده ، ما عدانا .

قلت . ومضينا نخترق الطريق .

دمشق

هاني الراهب